

— أليس هذا الإكبل الذي تفتتين أوراقه
إكبل لقبك القديم ؟

فعلا وجهها الاصفرار وأجابت سلبا
فصحت بها : أقسم بحياتي إنه هو بعينه ، فأعطاني
بقاياها ...

وجمت الوريقات اليابسة فوضعتها على الهيكل
ووقفت أنظر خاشعاً إليها كأنها رفات . فقالت : هب
أنه إكبل لقي ، أما ترى أنني أحسنت عملاً بترعه
عن هذا الجدار حيث علق منذ زمان مديد ؟ أية قيمة
للمندثر البالي ؟ إن بريجيت سيدة الورد قد ماتت عن
هذا العالم فما هي خير من إكبلها المنقرط البالي

وخرجت فسمعت شهقة بكائها وصرير الباب
يقفل وراءها ، فإذا بي منفرد في المصلى أتهاوى
جائئياً معولاً

وعند ما لحقت بها رأيتهما جالسة إلى المائدة
تتطيرني لتناول الطعام ، فأخذت مكاني وسكت كل
منا عما كان يجول في ضميره

الفصل السادس

وما كذب الواقع ظني بمركانسون إذ تأكدت
أنه لم يتورع عن التحدث أمام سكان القصور المجاورة
وأمام أهل القرية عن مقابلاتي له واستفساري عن أمر
دالانس ، فاستمر ما نتم عليه اضطرابي من شكوك
ولا يحفل أحد ما في البلدان الصغيرة من سهولة
انتشار النجاسة فإنها تتطاير من قم إلى قم صائرة إلى
أعرب المبالغات ، وما أفلت وبريجيت من جور هذا
النظام ، فأصبحنا وكل منا شاعر بأنه أخرج موقف
الآخر ، لأن محاولتها مفادرة القرية كانت قد اصطدمت
بضعفها ، وشدة إلحاحي عليها أكرهتها على البقاء ،



إِشْرَافَاتٌ فِي الْعَصْرِ

لألفريد ريس

بقلم الأستاذ فليتكس فارس

الجزء الرابع

الفصل الخامس

ودخلت يوماً إلى مسكن بريجيت فرأيت باب
الغرفة الصغيرة التي كانت تدعوها المصلى مفتوحاً ،
وما كان في هذه الغرفة إلا مصلى من الخشب وهيكل
يلوه صليب حوله عدد من المزهرة ؛ وكانت السجف
بيضاء كالجدران الناصعة كالثلج ، تلك كانت خلوة
بريجيت وقد أصبحت منذ انصت حياتها بحياتي
لا تنقطع إليها إلا نادراً

ونظرت إلى الداخل فإذا بريجيت جالسة على
الأرض بين ما نثرت من الأزهار ، وقد قبضت على
إكبل صغير ذوت أوراقه وهي تفرطها بين أناملها
وسألتها عما تفعل ، فارتعشت ونهضت قائلة :
لا شيء ، هي لعبة أطفال ، فهذا إكبل ورد قديم
جف في هذا المصلى ، وقد أتيت لأستبدل هذه
الأزهار ...

وكانت تتكلم بصوت مرتجف وتكاد تهوى
على الأرض
وتذكرت ما سمعته عن تلقيب بريجيت بالوردية ،
فسألتها :

يورث إعجابهم في حياتها الماضية تأويل تظهر الشر فيها، فأصبحوا يهزأون بربها بالفقراء، وتجولها في الجبال لمدواتهم. وهكذا كانت تدور الأحداث عن بريجيت كأنها إباحية تتعرض لأوخم العواقب

وكنت قد صارحت بريجيت بأنني أرى، الإغضاء، عن كل هذه التخرصات إذ أردت التظاهر بعدم المبالاة بها في حين أنها كانت ترهقني وتبيل أفاكري وكنت أذهب في بعض الأحيان متجولاً في الضواحي أتسقط من الإشاعات ما يمكنني الاستناد إليه للوم بريجيت ومناقشتها الحساب. وعبثاً كنت أهدف السمع لألتقط من الهمس في المجتمعات ما يتقع غلتي إذ كان الناس لا يبدأون بنهشي إلا بعد أن أتوا، فكنت أعود إلى بريجيت لأقول لها إنه لا أهمية لهذه التخرصات التي تصل إلينا، فليذهب الناس مذاهمهم فينا فما أنا بالقيم لاغتيالهم وإفكهم وزناً

وما كنت وأنا أتبع هذه الخطة إلا موالياً للناهشين من عرض خيلاتي إذ كان علي وأنا موردها هذه الموارد الخطرة أن أهتم للأمر وأقبح مغباته وما طال الزمن حتى عدت عن ذلك إلى المهاجمة فقلت لحبيبتى : — إن الناس يتقوّلون كثيراً بشأن تجولك في الليالي فهل أنت واثقة من أنهم يفترّون ؟ أفلم يقع لك أى حادث على طرق هذه الجبال وفي مغاورها ؟ أما اتفق لك أن عدت في الفسق مستندة إلى ذراع مجهول كما استندت إلى ذراعي ؟ أصبح أنه لم يكن لك من مقصد غير الاحسان في اقتحامك ظلمات هذا الهيكل الجبل بالاخضرار ؟ لأول مرة هاجمت فيها بريجيت بنقل هذا

غير أنني كنت أنا المسؤول أمامها التمهدي ألا أشوش سكينتها بغيرتي أو بطايشي ؟ ولهذا كانت كل بادرة قاسية مني نكولاً ، وكل لفظة حزينة منها ملامة مبررة ...

وأحسّت بريجيت في أول الأمر بلدة في عزلتها وتمكنها من الانفرادي في أية ساعة دون محاذرة وتحوط ولعلها كانت تتظاهر بالاعتباط لتثبت لي أن غرامها أعزّ عليها من سمعتها وأنها نادمة على ما أبدته من الاهتمام بأقوال المرحفين . وهكذا سرنا في حياتنا لا نفري على شيء من فضول الناس متممين بتلـ حريتنا في اتباع أهوائنا

وكنت أذهب إلى بيتها عند ساعة الإفطار وإذا خرجت فلا أخرج إلا بصحبتها ، فأقضي النهار معها حتى العشاء وعند ما يحين ميماء انصرافي بعد السمر كنا نتعلل بأسباب عديدة للبقاء معاً ونتخذ احتياطات جد تافهة لإخفاء بقائي في غرفها ليلاً . وعلى هذا الخط أقننا دون انفصال غداً عين أنفسنا بأن لا أحد يلاحظنا

وقت بوعدي برهة من الزمان فداريت عواطف بريجيت ولم تفكر جونا غمامة ، تلك أيام سعيدة هائلة وليس في مثل هذه الساعات من الدهر ما يستدعي وصفاً وبياناً

وذهبت الإشاعات في القرية وضواحيها تعلن أن بريجيت تسكن علناً فاسقاً باريسياً يعاملها أسوأ معاملة فيمضيان أوقتهما بالتقاطع والتواصل ؛ وتوقع الكل أسوأ العواقب لهذه الحياة

وانقلب ما كان يقال من الثناء لبريجيت من قبل لوماً وتقريعاً حتى ذهب الناس إلى تأويل ما كان

ودام الحال بيننا على هذا المنوال ستة أشهر لم
أنقطع فيها عن اللوم والتقريع وقد تحملت بريجيت
أثناءها من الاهانات ما لا يفعله إلا فاسق يبني تقاضاه
أجراً عن تمتعه بها

وكنت كلما اقتحمت هذه المشاكسات ملهياً
أفكاري ومقطعاً قلبي بالآهام والسخرية أراجع
عنها وقد بلغ الهيام بي أشده فأقف أمام خليلتي وقفة
الوثني أمام صنمه

كنت أوجه أشد الاهانات إليها ، ولا يمر
ربع ساعة حتى أجثو عند قدميها . فإذا ما انتهيت
من التقريع بدأت بالاستغفار ، وإذا خرجت من
التهمك لجأت إلى ذرف الدموع ، وتشملي سعادتي
فأطير فرحاً ، وتثور أعصابي فأقلب إلى العنف
لا أدري ما يجب أن أقول أو أفعل للتكفير عما
أخطأت به ، فأهرع إلى بريجيت لأضمها إلى صدري
طالباً منها أن تكرر مائة مرة قولها إنها تجبني
وتفضي عن إساءتي ، واعدأ بالتعويض عما بدر مني
مقماً بأنني سألهب دماغى بقذيفة إذا أنا عدت إلى
إهانتها

وكانت الثورة في عواطني تمتد الليل بطوله فلا
أنقطع عن الكلام والبكاء والانطراح على أقدامها
وارتشاف كأس الغرام ثملاً من ثمالها حتى إذا برغ
الفجر أجذني متهدماً فأستسلم للكرى وأنهض بعد
الصباح وعلى شفقي بسمة الساخر الذي لا يؤمن بشئ
وكانت بريجيت في مثل هذه الليالي المشتعلة بنار
اللذات تناسي شخصيتي الجائرة فلا تنظر مني إلا
إلى الرجل المائل بين ذراعيها ؛ وإذا ما خطر لي أن

الكلام ، أرسلت إلى نظرة هزت مشاعري ولن
أنساها ما حيت . ولكنني قلت في نفسي إذا أنا
تعرضت للدفاع عن هذه المرأة فإنها ستفعل بي
ما فعلته خليلتي الأولى فتعرضني لهزء الناس وسخريتهم
فأجنى الغرم عما غنمت وعما غم الآخرون .

إن المسافة لجذ قصيرة بين الشك والانكار ،
وما أقرب المتفلسفين إلى الملاحدين . قلت لبريجيت
إنني ارتاب بسلوكها الماضي ، فرأيتني مدفوعاً إلى
الارتياب حقيقة ، وما طال الزمن حتى أسلمني هذا
الشك إلى اليقين فتصورت أن بريجيت تخونني في
حين أنني لم أكن أبارحها ساعة واحدة ، وعمدت
أخيراً إلى التغيب عنها من حين إلى حين مقنعاً نفسي
أنني أحاول تجربتها وما كنت أقصد بذلك إلا إطلاق
العنان لشكوكي ثم أعود بعد تغيبي لأقول لها إنني
برئت من غيرتي فأصبحت أهزأ بوساوسي القديمة ،
وما كان معنى ذلك سوى اضمحلال غيرتي لو هن
طراً على هيامي

وكنت من قبل أحتفظ لنفسى بما ألاحظه من
حالتها فأصبحت أجد لذة في إبداء ما يمن لخاطري
فأقول لها مثلاً : إن ثوبك هذا جد حسن ، وقد
كان لأحدى صديقاتي مثله شكلاً ولوناً . فإذا
جلسنا إلى المائدة أدعوها إلى الانشاد قائلاً : إن
خليلتي القديمة كانت ترسل صوتها بعد الطعام أفلا
يجدر بك التشبه بها ؟ وإذا أرادت العزف على البيانو
أأبدرها بقولي : أرجوك أن تسميني ألحان الرقصة
التي كانت منتشرة في الشتاء المنصرم فإنها تذكرني
بأوقات المرح والسرور

ولكن هذه العاصفة تدخل الحزن إلى نفسي بالرغم
منى فعلينا أن نتحدّأها

وقت إلى الثريا أضيء كل شموعها فغمرت
الغرفة الصغيرة بالأنوار التدفقة وكان في الموقد نار
مشبوبة تملأ المكان حرارة وتزيدها نوراً

وتساءلت عما يمكن لنا أن نفعل إلى أن يحين
وقت العشاء فتذكرت أيام المرافع في باريس
ومرت في تخيلتي عربات الساخر تتلاقى على جاداتها
الكبرى وتجيح الجماهير بتعالى وهم يخرجون من
المسارح ، ومثلت أمامي مشاهد الرقص الخلاعي
والأثواب المخططة والكؤوس تتدفق خمرآ فانتفض
قلبي بكل ذكريات شبابي وبكل عنفوانها . فصحت
بريجيت :

— هيا بنا نتنكر وإن لم يكن أمامنا سوانا
وإن لم يكن لدينا ما يبي بالغرض من أثواب فانتا
تدبرها

وأخرجنا من الخزانة ثوبين وأردية وأحزمة
وأزاهر صناعية وبريجيت تدرع - كماداتها - المرح
الصبور . وأرادت أن تعصب رأسى بيدها ثم أخذنا
من صندوق صغير قديم قد يكون من متروكات
عمتها أصباغاً وأدهاناً فدهنا بها وجهينا حتى
تنكر كل منا لعين الآخر . ومرت ساعات السمر
تحمينا بالغناء وبالقيام بعدد ما تصورناه من حركات
الجنون حتى مضى نصف الليل وحان وقت تناول
الطعام

وكانت الخزان لم تزل مفتوحة بعد أن قلبنا
ما فيها . ولما جلست إلى المائدة حانت منى التفاتة إلى

أكرر طلب العفو منها تجيبنى بقولها : أنما تعلم
أننى غافرة لك ؟ وكانت الحى التي تنأ كاني تلهب دميها
فلكم أعلنت لى ، ووجهها ممتنع شهوة وهياماً ، أنها
راضية بى على ما أنا عليه ، وأن فى ثأرات عواصفي
تنفس حياتها فسادتها كامنة فيما أؤديه ثمناً لتعذبي
لها ، وأنها لن تشكو أية شكوى مادام فى قلبى شرارة
من نار الغرام . ثم تقول : لاريب فى أننى سألاقى
الموت فى هذه الحياة ، ولكننى أرجو أن تلقاه أنت
أيضاً فيها ، ولهذا أشعر باللذة تعمرنى من كل
ما توجهه إلى من إهانة أو تذرفه من دموع ، فهى
السعادة التي حفرت قبرى فيها

ومرت الأيام يستفحل بكرورها دأى فأصبحت
ثأراً ، إذا ما حكمتنى نوبة المجنون صحتها حتى شديدة
تهزنى فجأة فلا تغادرنى إلى وقد تصبب العرق من جميع
أعضائى المرتعشة . وقد كان يكفينى أن يقع بى
حادث ليس فى الحسبان أو أشاهد ما يثير دهشتى
حتى تسودنى رجفة يرتاع لها كل من يرانى .
وكنمت بريجيت شكواها فتم عنها شحوبها وما
بدأت مرة بالاساءة إليها بعد هذا إلا خرجت من
أمامى دون أن تفوه بينت شفة لاجثة إلى غرفتها
توصد بابها عليها

إننى أحمد الله لأننى مارفت يوماً يدي على
بريجيت حتى فى أشدها جى وقد كنت أفضل الموت
على هذه الفعلة النكراء

واشتدت العاصفة ذات ليلة وأنا وبريجيت
نصنئ إلى نقرات الأمطار على زجاج النوافذ المغفلة
والمحجلة بالسجف فقلت لها : إننى أشعر بانبطاس

دعيني أتفادى جريمة القتل فأذهب في هذا الليل دون
أن أطلبك بمغفو يردده الله إذا أنت أقدمت على منحه.
لم يبق لي ما أرجوه إلا قبلتك الأخيرة

وأنحيت طابعاً قباني على جبينها، فمتهفت بصوت
محتنق: لم يحن الوقت بعد. ولكنني أقيتها على
المقعد وانطلقت راكضاً إلى منزلي، وما مضت ثلاث
ساعات حتى كنت على أهبة الرحيل وقد وقفت العربية
أمام بابي

وكان المطر لا يزال يتساقط مدراراً فصعدت
إلى العربية متلمساً، وما ارتمت على المقعد حتى شعرت
بذراعين يطلوқан عنقي وبفم يزفر بالأنين على شفتي
هي بريجيت أنت تكمن لي لترحل معي، فحاولت
عشاً إقناعها بالمداول عما نوت حتى أنني وعدتها أن
أعود إليها عندما أكون نسيت ما أوقعت بها من
ضرر مؤكداً لها أنني إذا بقيت لن يكون غدنا إلا
كأمننا، فكأثها - وهي تمسك بي وأنا على
حالتي - تصمم على جعلي مجرمًا قاتلاً. توسلت
وبذلت الوعود معززة بالأقسام، وذهبت حتى إلى
التهديد فما أجدى كل ذلك فتيلاً؛ إذ كانت ترد كل
محاولاتي بجواب واحد قاتلة:

- أنت راحل فأنا معك. لنهجر هذه البلاد
تاركين ماضيها فيها. لقد امتنع علينا العيش هنا
فلنذهب إلى حيث نشاء. إن الأرض لن ترضى علينا
بزأوة نموت فيها... لنهنا في هذه الحياة فتجد في
سعادتك وأجد فيك سعادتي

ضممتها وضممتها حتى شعرت أن قلبي ينحطم
عليها وصحت بالسائق: هيا بنا، وسار الجوادان
يقطعان الأرض ونحن متعانقان

فيلكس فارس

« يسيم »

أقربها مني فرأيت على أحد رفوفها السجل الذي
أنيت على ذكره وهو سيم بريجيت في أغلب أوقاتها
فقلت لها: أليس هذا مجموعة من خواطرك؟ فهل
لي أن ألقى نظرة عليه؟

وعند ما فتحت هذا السجل تحفرت بريجيت
لنعي عن القراءة، ولكنني كنت رأيت بأوله هذه
الكلمات: (هذه هي وصيتي) فقلبت الصفحة فإذا
أمامي ما دونته بخط متناسق يتم عن الهدوء من وصف
دقيق لما احتملته من تعذيب لها منذ استسلمت إلى،
وقد أعلنت إصرارها على احتمال كل معاملة سيئة
منى مادمت أحبها، وعلى اقتحام الموت إذا تخليت
عنها، واستغرقت في تتبع ما كتبته يوماً فيوماً عن
تضحية حياتها وما فقدت وما كانت ترجو فإذا بها
تصف شعورها بالدهشة حتى بين ذراعي، وتذكر
الحوائل التي تزايد مع الأيام بيننا وما أعاملها به من
قسوة وجفاء لقاء حبها وإخلاصها

دونت كل هذا فما أبدت امتعاضاً أو زفرت
بشكوى بل حاولت جهداً تبرير معاملتي والمدافعة
عني، وأخيراً تناولت بوصيتها ما يتعلق بورثاتها
معلنة أنها ستجزع السم لوضع حد لحياتها بمحض
اختيارها طالبة ألا تكون مذكراتها سبباً لاتخاذ أي
إجراء ضدي، وأنهت كل هذا بقولها:

صلوا من أجله !!!

ووجدت في الخزانة نفسها التي أخذت سجل
المذكرات منها علبة صغيرة تحوى مسحوقاً ناعماً
ضارباً إلى الزرقة شبيهاً بالملح

وسألت بريجيت عن هذا المسحوق وأنا أرفع
العلبة إلى في فصرخت وارتجت على فقلت لها: سأخذ
هذه العلبة وأنوارى عنك فيقودك السلوان إلى الحياة